

ملاح أسلوبية في نونية أبي إسحاق الإلبيري

د. محمد أحمد المبارك دقالي

مقدمة:

من سياسات بعض ملوك الطوائف التي صعدت من حدة شعر النقد السياسي تمكين اليهود من اختراق بلاط الدولة ووصولهم إلى أعلى المناصب فيها الأمر الذي أثار حفيظة الأندلسيين والشعراء منهم بخاصة، وخلال تتبعنا للنصوص الشعرية في هذا الجانب تطالعنا نونية أبي إسحاق الإلبيري الذائعة الصيت في نقد سياسة الوزير اليهودي يوسف ابن النغريلة، وسبب شهرتها أن الشاعر كان قد عمل كاتباً لأحد قضاة غرناطة زمن باديس بن حبوس وكان باديس قد تقرب إليه يهودياً يدعى إسماعيل بن النغريلة وعمل في بلاطه، ولقي حظوة كبيرة عنده عندما كشف له عن مؤامرة تستهدف شخصه وصار محل ثقة وأمانة، وظل اليهودي يعمل بحنكة وسياسة حتى مكّن ابنه يوسف بن النغريلة (١) من استخلافه للوزارة من بعده، فقدمه باديس على العمال والجبليات، فظل يعمل على تحصيلها، وفي المقابل كان يكيد الدسائس والمؤامرات ضد المسلمين حيث عمل على تمكين اليهود من بسط نفوذهم في البلاد، كما تأمر على قتل ابن باديس وولي عهده " بلقين "؛ بل وتطاول على باديس نفسه (٢) حتى استفحل أمره وفاحت رائحة دسائسه، وحين رأى الشاعر نفوذ اليهود في الدولة وتطاولهم على أمور المسلمين لم يرق له ذلك فكانت نهاية ذلك الوزير والقضاء على نفوذه بعد ثورة أشعلتها نونية الإلبيري (٣).

الرؤية الفكرية والانفعالية. كما استفادت الدراسة من مناهج النقد الأدبي المذهبي كالتنقيح التاريخي والاجتماعي والنفسي في تحليل مضامين هذه القصيدة ودلالاتها الاجتماعية والنفسية. هذه القصيدة التي أثرت في نفوس الأندلسيين وأثارت عزائمهم بدأها الشاعر بنقد سياسة أمير غرناطة، وإهماله أمر المسلمين وتمكينه من موالاة اليهود.

بعد نقده لسياسة باديس يكشف الشاعر عن مساوئ ذلك الاختيار، فالحاكم كان يغض طرفه عن سياسة الوزير الذي شجع الكثير من قومه على التطاول على المسلمين والسخرية من دينهم ومعتقداتهم، ثم يصف في حالة من الاستغراب والحزن صمت المسلمين وسكوته عن مؤامراتهم ومكرهم،

وهو نص يتميز بوضوح الموقف الفكري والانفعالي وحدته مما ينعكس - بالضرورة - على البنية اللغوية والأسلوبية للنص، كما تكمن أهمية البحث في القيمة الفنية العالية لهذا اللون من الشعر شعر الثورة والرفض فهو يعكس صدق التجربة الانفعالية وعمق الاحساس في المستوى اللغوي والإيقاعي والتصويري جاعلاً منها بنية فنية واحدة متفاعلة في الرؤية والشكل.

منهجية البحث:

لقد سلكت هذه الدراسة منهجاً يقوم على الاستفادة من منجزات النقد الأسلوبي والبنوي وغيرهما من اتجاهات اللسانيات النصية في تحليل بنية هذه القصيدة والكشف عن تفاعلاتها على مستوياتها الإيقاعية واللغوية والتصويرية، ودلالات كل منها في صلتها بمستوى

مشكلة البحث:

يطرح البحث قضية سياسية تحذر من خطر اليهود ومخططاتهم في الكيد للإسلام والمسلمين من خلال تغلغلهم في مفاصل الدول الإسلامية عبر العصور ومن سياساتهم المكر والدسائس وإفساد العلاقات الاجتماعية وخلق فجوة كبيرة بين الحاكم والرعية. كما يعكس دور الشعر في مواجهة الواقع والدعوة إلى الإصلاح، والتأثير على الجمهور ودفعه باتجاه الثورة على الفساد والطغيان.

أهمية البحث:

وقد وقع الاختيار على نونية أبي إسحاق الإلبيري في تحريض الأمير باديس وقومه من صنهجة على الوزير اليهودي الملقب بـ "ابن النغريلة" وقومه لفسادهم وتعدياتهم على الدولة وحقوق الرعية،

ولا جالسوهم وهم هُجنته
ولا وكبوهم مع الأقربين (٧)
يعدُّ هذا المقطع الذي يستغرق الثلاثة
عشر بيتاً بمثابة عرض أو وصف تقريري
يلقي به الشاعر على مسامع قومه من
صنهاجة شاكياً إليهم زلة أميرهم وطغيان
الوزير اليهودي وقومه وإفسادهم، ومن ثم
كان من الطبيعي أن يستأثر قوم الشاعر
(صنهاجة) وهدمهم بضمير المخاطب
في هذا الجزء من القصيدة، مما يجعل
لهم وهدمهم الحضور والفاعلية، في حين
يسلك الأمير (باديس) مع الوزير وقومه
جميعاً في ضمير الغائب في إشارة فنية
إلى اشتراكهم في الإثم والخطيئة، ويتردد
الوزير وقومه جميعاً في ضمير الغائب
بكثافة واضحة وسيطر على الأبيات، وهو
ما يتناسب مع منحه الوصف التقريري لما
آل إليه حال الوزير وقومه، كما يتناسب
أيضاً مع ذلك الوصف التقريري سيطرة
الأسلوب الخبري سيطرة شبه مطلقة على
أبيات ذلك المقطع من القصيدة.

وتتقسم هذه الأبيات الثلاثة عشر إلى
جملتين شعريتين طويلتين تمتد كل منها
في عدد من الجمل المتسلسلة المترابطة،
وتخضع الجملتان لغويًا ودلاليًا لتلك
الثائية الضدية المسيطرة على القصيدة
بأكملها (ثائية الخطيئة والجزاء) بحيث
يسيطر على كل جملة منهما جانب من تلك
الثائية، ومن ثم كان طبيعيًا أن يسيطر
الزمن الماضي سيطرة واضحة على أفعال
الجملتين الشعريتين، تلك الأفعال التي
تتابعت وتدرجت دلاليًا وفق منطق التسلسل
والسببية.

فأما الجملة الأولى وهي التي تمثل
جانب الخطيئة في تلك الثائية البنيوية

وتأسيساً على توزيعات الضمائر
وتشكيلاتها داخل القصيدة يمكننا أن
نقسم أبياتها السبعة والأربعين (٦) إلى
أربع وحدات بنائية أساسية تسيطر على كل
منها منظومة من الضمائر، وذلك تسهيلاً
لدراسة القصيدة وتحليل بنيتها من ناحية،
ولبيان شبكة العلاقات بين مستويات النص
التحوية والصرفية والمعجمية والدلالية من
ناحية أخرى.

المقطع الأول:

أَلَا قُلْ لَصْنَهَا جَاجَمَعِينَ
بُدُورِ النَّدِيِّ وَأَسْدِ الْعَرِينِ
لَقَدْ زَلَّ سَيِّدُكُمْ زَلَّةً
تَقَرَّبَهَا أَعْيُنُ الشَّامِتِينَ
تَخَيَّرَ كَاتِبُهُ كَافِرًا
وَلَوْ شَاءَ كَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ
فَعَزَّ الْيَهُودَ بِهِ وَأَنْتَحَوَا
وَتَاهَا، وَكَانُوا مِنَ الْأَرْدَلِيِّينَ
وَنَالُوا مِنْهَا، وَجَازَا الْمَدِي
فَحَانَ الْهَلَاكُ وَمَا يَشْعُرُونَ
فَكَمْ مُسْلِمٍ فَاضِلٍ قَانَتْ
لَأَرْدَلٍ قَرَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
وَمَا كَانَ ذَلِكَ مِنْ سَعِيهِمْ
وَلَكِنْ مَنَّا بِقَوْمِ الْمُعِينِ
فَهَلَّا اقْتَدَى فِيهِمْ بِالْأَلِي
مَنْ الْقَادَةَ الْخَيْرَةَ الْمُتَّقِينَ
وَأَنْزَلَهُمْ حَيْثُ يَسْتَاهِلُونَ
وَرَدَّهُمْ أَسْفَلَ السَّافِلِينَ
وَطَافُوا لَدَيْنَا بِإِخْرَاجِهِمْ
عَلَيْهِمْ صَعَارٌ وَدَلٌّ وَهَوْنٌ
وَقَمُّوا الْمَزَابِلَ عَنْ خِرْقَةٍ
مُلَوَّنَةٍ لِدَثَارِ الدَّفِينِ
وَلَمْ يَسْتَحْفُوا بِأَعْلَامِنَا
وَلَمْ يَسْتَطِيلُوا عَلَى الصَّالِحِينَ

فيستنكر المكانة التي وصل إليها هؤلاء، مع
وجود من هو أهل لمنصب الوزارة (٤).

ولم يكفئ الوزير اليهودي في نظر
الشاعر - من تمكين قومه من مناصب
رفيعة في غرناطة تحكّموا من خلالها
بأمور المسلمين: بل تعداها إلى التآمر على
الدولة وحاكمها، والتطاول على الأديان
وبخاصة الإسلام، فقد ذكر ابن بسام
أنه كان "... يتمدح بالظعن على الملل...
وجاهر في الظعن على ملة الإسلام...
" (٥)، الأمر الذي صدّد من السخط عليه
ورميه بالفسق، وقد عبرت قصيدة الشاعر
عن حالة الغضب الشديد في نفوس مسلمي
غرناطة تمثلت في نقد الشاعر الشديد
والتحامل على تلك السياسة التي مكنت
الكنفار من التحكم بالمسلمين والتطاول
عليهم.

وهكذا تنتهج القصيدة نهجاً سردياً
قصصياً تتوالى فيه حركة الأحداث
والأفعال المسندة إلى الوزير وقومه ممثلة
في لونا من الأخطاء في حق نظام الدولة
ورعاياه، ثم نسعى بالمقابل إلى خلق
حركة مضادة للحركة الأولى تتمثل في
حركة الثورة والانتقام من خلال الإثارة
والتحريض.

ومن الناحية الفنية تبرز وحدة
القصيدة الكبرى من خلال الثائية
الضدية التي تستحوذ بنويًا على لغة
القصيدة وجميع عناصرها التعبيرية
الأخرى. ومن خلال مجموعة الضمائر في
القصيدة فإنها تعود في جملتها إلى ثلاثة
ضمائر أساسية هي ضمير المتكلم، وضمير
الغائب، وتتنوع هذه الضمائر جميعاً
على طريقتي الثائية الضدية المحورية في
القصيدة.

يعني أن الفاعل الجمع المسند إليه في هذه الجملة شريك الفاعل المفرد في الفعلين السابقين الذي يعود على الأمير، فهم - إذن - قومه من صنهاجة، وهذا ما يوحي بأن على صنهاجة دوراً في إصلاح الأوضاع وتقليم أظافر الوزير المتجبر وقومه، بيد أنه يعترض داخل السياق النصي فعلان يتعارضان معه نحوياً ودلالياً هما قوله: (ولم يستخفوا بأعلامنا)، (ولم يستطيلوا على الصالحين)، ولوقوع المفعولية فيها ما على الشاعر وقومه فإن الفاعلية فيها - إذن - للطرف المقابل أي الوزير وقومه من اليهود، وذلك تعبيراً عما قاموا به من التطاول والطمع، بيد أن وقوع الفعلين في سياق النفي يجعل منهما نتيجة سلبية منفية لأمنية لم تتحقق بوضع اليهود في حجمهم الطبيعي، وهي التي عبر عنها الشاعر بقوله (فَهَلَّا اقْتَدَى فِيهِمْ بِالْأَلَى..)، وربما كان اضطراب السياق وتعمده بهذا الشكل يحمل دلالة فنية، إذ يتسق مع حالة الاضطراب والتعقد والاختلاط المائج في وضع أطراف القضية.

المقطع الثاني:

أَبَادِيسُ أَنْتِ امْرُؤٌ حَادِقٌ
تُصِيبُ بظَنِّكَ نَفْسَ الْيَقِينِ
فَكَيْفَ اخْتَفَّتْ عَنْكَ أَعْيَانُهُمْ؟
وَيَا أَرْضَ تَضْرِبُ مِنْهَا الْقُرُونُ
وَكَيْفَ تُحِبُّ فِرَاحَ الزَّنَا؟
وَهُمْ بَعْضُوكَ إِلَى الْعَالَمِينَ
وَكَيْفَ يَتَمُّ لَكَ الْمُرْتَقَى؟
إِذَا كُنْتَ تَبْنِي، وَهُمْ يَهْدِمُونَ
وَكَيْفَ اسْتَمْتَمْتَ إِلَى فَاسِقِ
وَقَارَنْتَهُ؟ وَهُوَ بَيْسَ الْقَرِينِ
وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِي وَحْيِهِ

صلوات الود وحسن المجاورة.
وأما الجملة الشعرية الثانية فيستغرق ستة الأبيات المتبقية من هذا المقطع، ويتشكل نسيجها النصي من عدد من الجمل الفعلية الماضية أيضاً، والتي تتوزع حسب الضمائر المسند إليها إلى ثلاث مجموعات أصغر، يبدأ الشاعر بجملة (فَهَلَّا اقْتَدَى فِيهِمْ بِالْأَلَى..) مسنداً فعلها إلى ضمير الغائب المفرد الذي يعود بالطبع على الأمير، مبتدئاً إياها بالحرف (فَهَلَّا) الذي يجمع بين التحضيض والتمني، ويخلق مقابلة حادة بين ما هو كائن بالفعل وهو الذي عبرت عنه الجملة الشعرية السابقة في وصف ما آل إليه حال الوزير وقومه، وبين ما ينبغي أن يكون، وهو الذي ترسمه الجملة الشعرية الحالية، ومن ثم فهذه الجملة الصغرى (فَهَلَّا اقْتَدَى..) تعد جسراً بنيوياً أو حلقة وصل دلالي بين الجملتين الشعريتين الطويلتين، ومن ثم تتبثق منها عدة جمل تفسيرية متتابعة للفعل (اقْتَدَى)، تأتي اثنتان منها مسندتين إلى ضمير الغائب المفرد العائد - بالطبع - على الأمير (وَأَنْزَلَهُمْ حَيْثُ سِيس تَاهِلُونَ)، (وَرَدَّهُمْ أَسْفَلَ السَّافِلِينَ) معبراً عما كان ينبغي على الأمير من وضع هؤلاء في حجمهم الطبيعي بوصفهم رعايا وأهل ذمة تابعين للدولة لا متبوعين ولا سادة لها، ثم تأتي باقي الجمل التالية حاملة مفاجأة أسلوبية بإسناد أفعالها إلى ضمير الغائب الجمع لا المفرد مع الحفاظ على السياق الدلالي بعودة المفعولية فيها على الوزير وقومه وهي الجمل (وطافوا لدينا بإخراجهم)، (وقموا المزابل عن خرقته)، (ولا جالسوهم وهم هجئة)، (ولا واكبهم مع الأفريين)، وهذا

فستغرق ستة أبيات بعد بيت المطلع، ويتمثل نسيجها النصي أو لحمتها البنيوية في الجمل الفعلية الماضية (لَقَدْ زَلَّ سَيْدُكُمْ) للتعبير عن خطيئة الأمير وتوكيدها، ثم في الجملة التفسيرية لها (تَخَيَّرَ كَاتِبُهُ كَافِرًا)، ثم في الجمل المتتابعة المترتبة عليها والمعبرة عن خطيئة قوم الوزير (فَعَزَّ الْيَهُودُ بِهِ، وَأَنْتَخَوْا، وَتَاهَا، وَنَالُوا مِنْهُمْ، وَجَازَاوَا الْمَدَى)، وتتوسط بين تلك الأفعال المتتابعة الجملة شبه الاسمية الدالة على حال هؤلاء قبل تولي صاحبهم الوزارة (وَكَانُوا مِنَ الْأَرْدَلِيِّينَ)، ثم تأتي الجملة الفعلية الأخيرة (فَحَانَ الْهَلَاكُ) بمثابة النتيجة الحاسمة لكل الأفعال السابقة، ولا يشذ عن هذه الأفعال السابقة زمنياً إلا فعل الامر (قُلْ) الذي يمثل عنواناً أو إطاراً خارجياً للقصيدة والفعالان المضارعان (تَقْرُبَهَا أَعْيُنُ الشَّامِتِينَ، وَ لَكِنَّ مِمَّا يَقُومُ الْمُعِينُ) وهما للدلالة على استمرار أثر تلك الزلة حتى يتم إصلاحها، أما الفعل (وَمَا يَشْعُرُونَ) فهو واقع في سياق النفي، ويلقي السياق النصي من خلال ذلك الحقل الدلالي بظلاله على كثير من الألفاظ ممثلاً لونا من ألوان الانزياح الدلالي في الفعلين (عَزَّ الْيَهُودُ، وَأَنْتَخَوْا) منتقلاً بهما من معاني العزة والنخوة المشروعة إلى الدلالة على الترفع والتعالي والتجبر المقيت الذي يستوجب الجزاء الرادع، كما يبدو ذلك في إيثار الشاعر لفظة (كافر) بدلاً من (يهودي) في قوله (تَخَيَّرَ كَاتِبُهُ كَافِرًا) لما تثيره اللفظة الأولى في نفس المتلقي من شعور بالنفور والاشمئزاز، ولدلائها كذلك على تعمق الشعور العدائي نحو الإسلام وأهله في نفوس اليهود مهما بدا على السطح من

من معاني المدح والثناء، إذ تمهدان للجمل الاستهامية المتكررة في الأبيات التالية وتقيمان معها مقابلة دلالية حادة، مما يجعل من ذلك البيت الأول في هذا المقطع إطاراً دلالياً للمقطع كله، وجسراً بنيوياً بينه وبين المقطع السابق.

وتتوالى خمس جمل استهامية في خمسة أبيات تتدرج دلالياً وفق منطق السببية أو التتابع الحر، بإزاء كل استفهام منها جملة خبرية تتقابل معه دلالياً وتجتمع معه في البيت نفسه، مشكلة بتكرارها واضطرابها وابتدائها بالأداة نفسها (كيف) لوناً من ألوان الإيقاع النفسي والمعنوي، مما يضمن لها حسن التلقي والتأثير في الجمهور من خلال مساعدته على إشباع التوقع، وإشعاره بأن الأسئلة جميعاً إنما هي تنويع على لحن أساسي واحد هو لحن المعارضة والاحتجاج والنقد، ويأتي الاستفهام الأول (فكيف اختفت عنك أعيانهم؟) ليوحي بغفلة الأمير عن الحقائق الواضحة والثابتة بشأن وضاعة اليهود وخبثهم، وإبازاته الجملة الخبرية (وفي الأرض تضرب منها الفرون) لتؤكد بالمقابل افتضاح أمرهم وانكشاف حقيقتهم، ويترتب عليه الاستفهام الثاني (وكيف تحب فراخ الزنا؟) حيث جاء حب الأمير لهم نتيجة طبيعية لغفلته وجهله بحقيقتهم، وإبازاته الجملة الخبرية (وهم يفضوك إلى العالمين) وهي تحمل انزياحاً أو عدولاً عن الجملة المقابلة لمضمون الاستفهام والمفترض أنها (وهم يبيغضونك)، إذ أن جملة الشاعر أوقع في التعبير عن فداحة النتائج المترتبة على سوء تصرف الأمير، إذ إن البغض الموجه إليه جراء فعلته لم يقتصر على

بحيث تتوازي هاتان المقابلتان مع مخالفة الأمير لحقائق الأشياء وثوابت الأمور، وما تعارف عليه غيره من نيد اليهود ووضعهم في حجمهم الذي يستحقونه من الضالة والتبعية، ومن ثم يتولد عن تلك المقابلات مقابلة كبرى على المستوى الدلالي؛ يتمثل أحد طرفيها في انتقاد سياسة الأمير والاحتجاج على إعلائه من شأن الوزير وقومه من خلال الجمل الإنشائية الاستهامية المتكررة، في حين يتمثل طرفها الآخر في وصف وضاعة اليهود وخمولهم وانحطاط شأنهم في كل البلدان وفي كل العصور باستثناء بلد الأمير وعصره وذلك من خلال الجمل الخبرية التقريرية، ويصنع الشاعر من تلك الأساليب الإنشائية والخبرية معاً جدلية مضمونة محكمة تقوم على التوازي والتكرار من ناحية، وعلى التقابل من ناحية أخرى، بحيث تتضمن معظم أبيات ذلك المقطع الأسلوبين معاً بادئة بالاستفهام، ما جعل الصدارة الدلالية في ذلك المقطع للاستفهام الإنكاري، ويأتي التقرير الخبري تابعاً له مفعلاً لدوره.

ويتمثل النسيج النصي للأبيات في جملة النداء الإنشائية التي تحمل سر هذا الالتفات الطريف من الغياب إلى الحضور، ومن الوصف إلى الخطاب والمحاورة، ويستخدم الشاعر فيها الهمزة حرفاً للنداء كما ينادى الأمير باسمه مجرداً مما يدل على القرب من ناحية، ويتناسب - من ناحية أخرى - مع موقف الغضب والعتاب والاحتجاج الذي يتخذه الشاعر نحو أميره، وتتبعها الجملتان الخبريتان (أنت امرؤٌ حاذقٌ - تُصيبُ بظنك نفس اليقين) إمعاناً في العتاب والتقريع رغم ما تحملان

يُحَدِرُ عَنْ صُحْبَةِ الْفَاسِقِينَ
فَلَا تَتَّخِذْ مِنْهُمْ خَادِمًا
وَذَرَّهُمْ إِلَى لَعْنَةِ اللَّاعِنِينَ
فَقَدْ ضَجَّتِ الْأَرْضُ مِنْ فَسَقِهِمْ
وَكَادَتْ تَمِيدُ بِنَا أَجْمَعِينَ
تَأْمَلُ بِعَيْنِكَ أَقْطَارَهَا
تَجِدُهُمْ كَلَابًا بِهَا خَاسِئِينَ
وَكَيْفَ انْفَرَدْتَ بِتَقْرِيْبِهِمْ؟
وَهُمْ فِي الْبِلَادِ مِنَ الْمُبْعَدِينَ
عَلَى أَنْكَ الْمَلِكِ الْمُرْتَضَى
سَلِيلِ الْمُلُوكِ مِنَ الْمَاجِدِينَ
وَأَنَّ لَكَ السُّبْقَ بَيْنَ الْوَرَى
كَمَا أَنْتَ مِنْ جَلَّةِ السَّابِقِينَ (٨)
إن أول ما يلتفتنا في هذا المقطع بأبياته الاثني عشر هو تحول موقف الشاعر من الأمير الذي ينعكس لغوياً في الانتقال من ضمير الغائب العائد عليه إلى ضمير المخاطب، فالشاعر ينتقل - بالتالي - من الحديث عن زلة الأمير في المقطع السابق إلى محاورته ومساءلته وتقريعه عليها في المقطع الحالي، وترتب على ذلك ظاهرة أسلوبية أخرى هي كثافة الأساليب الإنشائية وبخاصة الاستفهام الإنكاري المبدوء بالأداة (كيف)، والذي يحمل دلالة أكيدة على رفض الشاعر لسياسة الأمير واحتجاجه عليها، مما يجعل من الأبيات جميعاً بنية خطابية حوارية تتميز عن البنية الوصفية السردية التي غلب عليها الأسلوب الخبري في المقطع السابق.

وتعكس الثنائية الضدية المسيطرة على القصيدة على أبيات هذا المقطع في عدة صور تشمل جميع مستويات البيئية؛ أولاهما المقابلة على المستوى النحوي بين الأساليب الخبرية والإنشائية، وتتبعها مقابلة أخرى على المستوى المعجمي،

الأخيران في هذا المقطع ويتضمنان أربع
جمل خبرية:

على ألك الملك المرتضى

سليل الملوك من الماجدين

وأن لك السبق بين الوري

كما أنت من جلة السابقين (١١)

وهي جميعاً جاءت لتأكيد المديح
والثناء على الأمير، ولتتوازي كذلك مع
جملتي الثناء في بداية المقطع (أنت امرؤ
حاذق - تصيب بظنك نفس اليقين)،
وبذلك نجد أن الشاعر قد أحاط هذه
الآبيات الاستهامية الاحتجاجية بالثناء
والمديح في أول المقطع آخراً ليقدم المديح
معها مقابلة دلالية وموازية إيقاعية،
وليخفف من غلواء ما تحمل من اعتراض
واحتجاج وتفسيه للأمير وسياسته
وتصرفاته.

المقطع الثالث:

وإني احتللت بغرناطة

فكنت أراهم بها عابثين

وقد قسّموها وأعمالها

فمنهم بكل مكان لعين

وهم يقبضون جبائياتها

وهم يخضمون، وهم يقضمون

وهم يلبسون ربيع الكسا

وأنتم لأوضعها لا بسون

وهم أمناكم على سركم

وكيف يكون خوون أمين؟

ويأكل غيرهم درهماً

فقصي، ويدنون إذ يأكلون

وقد ناهضوكم إلى ربكم

فما تمنعون، ولا تنكرون

وقد لا بسوكم بأشجارهم

فما تسمعون، ولا تبصرون

مفعلة لدوره في تشكيل البنية الكلية لهذا
المقطع، فأما هذه الجمل الفرعية فتشمل
أربع جمل إنشائية أيضاً: الأولى هي جملة
النداء (أباديس) في بداية المقطع، وهي
التي ترهص بالتحول من بنية الوصف أو
السرد في المقطع السابق إلى بنية المسألة
والاحتجاج في هذا المقطع، والجملتان
التاليتان يتضمنا بيت واحد وهما جملة
النهى (فلا تتخذ منهم خادماً) وجملة
الأمر (وذّرهم إلى لعنة اللاعنين)، وهما
يتضمنان طلباً واحداً على سبيل النصح
والإرشاد للأمير بأن يغير من سياسته
تجاه الوزير وقومه، ذلك النصح الذي
يترتب على الحقائق التي كشفها الشاعر
للأمير بشأن خسة هؤلاء من خلال الجمل
الاستهامية السابقة، وأما الجملة الرابعة
فهي أمر أيضاً (تأمل بعينيك أقطارها)
فقد جاءت ليرتب عليها مضمون وعزلتها
وامتئانها، وليكون ذلك التقرير مبرراً
للاستفهام في البيت التالي (وكيف انفردت
بتقريبهم؟).

أما الآبيات التي تتضمن جملاً خبرية
خالصة غير تلك التي تقع تذيلاً وموازية
للاستفهام فهي أيضاً تأتي مكملة في
وظيفتها للجمل الاستهامية الأساسية،
من ذلك الجملة التي تستغرق بيتاً كاملاً:
وقد أنزل الله في وحيه

يُحذِرُ مَنْ صُحِبَةِ الْفَاسِقِينَ (٩)

بوصفها استدلالاً على صحة مضمون

الاستفهام السابق (وكيف استتمت إلى
فاسق). ويأتي البيت:

فقد صجّت الأرض من فسقهم

وكادت تميد بنا أجمعين (١٠)

بوصفه تعليلاً للطلب السابق (فلا

تتخذ منهم خادماً وذرعهم)، ويبقى البيتان

اليهود وحدهم؛ بل شمل جميع الناس بما
فيهم رعيته، وهذا ما عبرت عنه كلمة
(العالمين) بما فيها من عمومية وشمول،
ثم يأتي الاستفهام الثالث (وكيف يتم لك
المرتضى؟) والذي تتحول دلالاته إلى النفي
والجحود من خلال المقابلة بين شطري
الجملة الخبرية التابعة له (إذا كنت
تبنى وهم يهدمون) لتبرز التناقض بين
نهج الأمير ونهجهم، وأهدافهم وأهدافهم،
وما يترتب على ذلك من التناقض بين
ارتقاء الأمير إلى ذرا المجد بعمله وبين
هدمهم لمجد الأمير وصورته أمام رعيته
بفسادهم وسوء صنيعهم، ويترتب مضمون
الاستفهام الرابع (وكيف استتمت إلى
فاسق وقارنته؟) منطقياً على المضمون
الاستفهام الثاني، فالحب قد أدى إلى الثقة
العمياء فيهم وتسليم مقاليد الأمور إليهم
رغم شهرتهم بالانتهازية والخيانة وهو ما
عبر عنه بوصفه بالفسق (إلى فاسق)،
وبإزاء هذا الاستفهام الجملة الخبرية
(وهو بيس القرين) لتؤكد عدم استحقال
كبيرهم لهذه الثقة وتلك المكانة، كما تؤكد
غفلة الأمير وبلاهته وسوء تصرفه، ثم
يأتي الاستفهام الأخير (وكيف انفردت
بتقريبهم؟) والذي يوحي مضمونه من
خلال الفعل (انفردت) بأن الأمير قد صار
بين أمراء عصره مخالفاً لسياستهم، وهو
ما تؤكد الجملة الخبرية التالية (وهم في
البلاد من المبعدين).

ولكي تكتمل السيطرة الدلالية على
هذا المقطع لبنية المسألة أو الاحتجاج
التي يشكلها أسلوب الاستفهام والجمال
الخبرية الموازية له كان من الضروري أن
تأتي باقي الجمل الأخرى خبرية كانت
أم إنشائية تابعة للاستفهام مكملة له

أزمة الأمور في غرناطة، ومن ثم تتفرع من تلك الجملة الأخيرة عدة جمل تفسيرية متتابعة تبلغ أربع عشرة جملة ما بين فعلية، واسمية محولة عن الفعلية بتقديم الفاعل على فعله، واسمية خالصة، وتمثل هذه الجمل خطأ دلاليًا متصلاً يستمد من معجم الخطيئة وهو الخط الأساسي في الآيات، وتبدأ بالجمليتين (وقد قسّموها وأعمالها) و (وهم يقبضون جباياتها) للدلالة على السيطرة والهيمنة، وما يستتبع السيطرة السياسية من الانفراد بجباية الأموال وخراج الدولة، ويليها الجمليتان (وهم يخضمون، وهم يقضمون) فتحدثان لوناً من ألوان الانزياح الدلالي في الجمليتين السابقتين بنقلهما من الدلالة على السيطرة والسيادة وولاية الأعمال والتي قد تعد شيئاً مشروعاً لا غبار عليه، إلى الدلالة على فساد الذمة وظلم الرعية واحتكار مال الدولة لأنفسهم، ثم تتوالى الجمل الدالة على الجاه والثراء والتباهي والاستعلاء (وهم يلبسون رقيق الكسا، وهم يذبحون بأسواقها، ورخّم قردهم داره، وأجرى إليها نمير العيون)، ثم يتحول الثراء والاستعلاء إلى عزة ومنعة نابعة من الثقة العمياء فيهم من قبل الأمير (وهم أمناكم على سركم)، حتى صاروا فوق القانون وفوق الدولة وفوق الحساب والعقاب (ويُدنون إذ يأكلون)، في حين يحاسب غيرهم ويقصى ويعاقب، وكانت النتيجة الطبيعية لكل ذلك أن صارت جميع أمور الناس في أيديهم (فصارت حوائجنا عنده).

وتطرق بعض الجمل باب الدين لتعزف على وتره الرنان لما للدين من قدرة على إثارة النفوس وإشعال الثورة

اختفت ظلال الحقل الدلالي الثاني الدال على العقاب والتكيل.

لكن خضوع الآيات لحقل دلالي واحد لا يعني اختفاء أثر تلك الثنائية الضدية المسيطرة على القصيدة بأكملها في هذا المقطع؛ بل إن السياق النصي يخلق عدداً من الثنائيات الضدية المنبثقة منها، أولها تلك الثنائية الواضحة الناتجة عن الموازنة بين حال المسلمين وحال اليهود، فحال اليهود هو الدال على طغيانهم واستعلائهم، ومن ثم يستمد فيه الشاعر من معجم الخطيئة، أما حال الأغلبية المسلمة فهو وإن كان نقيض الطائفة السابقة، إلا أن الشاعر يجعل منه انعكاساً لمفارقة أخرى وإن كانت خفية بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون، أي بين إيقاع العقاب والتخاذل عن إيقاعه، فهم لم يثوروا على تلك الأوضاع ولم يواجهاها؛ بل سكتوا عنها ورضوا بما هم فيه من الهوان، ومن ثم فإن الشاعر يجعل من استكانتهم وتخاذلهم تجاه الذل المفروض عليهم خطيئة أخرى وقعا هم أيضاً فيها، مما يشحن الآيات بالرغم من سرديتها وخبريتها بغير قليل من العتاب والتقريع من ناحية، كما يجعل منها عاملاً محفزاً على الثورة والتمرد من ناحية أخرى.

ويمثل النسيج النصي لآيات هذا المقطع خطأ دلاليًا في الجملة الخبرية ذات الفعل الماضي المؤكدة بـ(إن)، (وإني احتلكت بغرناطة)، والجملة (فكنت أراهم بها عابثين) وهما تقومان على السرد والقص، وتوحيان بأن الشاعر مقبل على سرد حكاية طويلة تبتق جميع تفاصيلها من خلال اسم الفاعل (عابثين) الذي يصف أفعال هذه الطائفة بعد تمكنهم من

وهم يذبحون بأسواقها
وأنتم لأطرافها أكلون
ورخّم قردهم داره
وأجرى إليها نمير العيون
فصارت حوائجنا عنده
ونحن على بابيه قائمون
ويضحك منا ومن ديننا
فإننا إلى زيننا راجعون
ولو قلت في ماله إنه كمالك
كنت من الصادقين (١٢)

إن أول ما يلفت الانتباه في بنية هذا المقطع بآياته الثلاثة عشر هو انتقال الشاعر من ضمير المخاطب المفرد العائد على الأمير في المقطع السابق إلى ضمير المخاطب الجمع الذي يعود بالطبع على قومه من صنهجة ومن يليهم من أهل دولته، ليقف هذا الضمير الجمع بإزاء ضمير الغائب الجمع العائد بالطبع على الوزير وقومه من اليهود، وليقيم الشاعر ببناء الآيات على الضميرين مع موازنة محكمة بين حال الأغلبية المسلمة المهضومة حقوقها من أهل غرناطة، وحال الأقلية اليهودية المتحكمة في مقاليد الأمور فيها.

ويتوافق مع تلك الموازنة غلبة الأسلوب الخبري على آيات المقطع كله غلبة مطلقة، بالرغم من وجود ضمير المخاطب الجمع، فالآيات لا تحمل طلباً أو تكليفاً إليهم، وإنما تحمل إخباراً لهم، مما يجعل من الآيات جميعاً بنية وصفية سردية تتوازي مع نظيرتها في المقطع الأول من القصيدة. كما توافق مع هذا التحول من الحوار إلى السرد ومن الإنشاء إلى الخبر أن اعتمدت الآيات في معجمها اعتماداً كلياً على حقل دلالي واحد هو الحقل الأول الدال على الخطيئة والانحراف، وبالتالي

الفعلين (يقضى - يدنون) كيف استحکم الخلل والتحيز الطبقي والعنصري حين أصبحت الحدود تطبق على أصحاب الدولة من المسلمين فحسب، في حين أصبح الوزير وقومه فوق الدولة وفوق الحساب والعقاب.

أما باقي الجمل الأخرى فجاءت اسمية لتدل على الثبات والدوام، وتشارك اثنتان منها في الابتداء بضمير المخاطب (وَأَنْتُمْ لَأَوْضَعُهَا لِابْسُون - وانتم لأطرافها أكلون)، وهما جملتان متوازنتان تركيبياً وإيقاعياً؛ إذ تشتركان في المبتدأ (أنتم)، وتختلفان في الخبر الذي جاء بصيغة اسم الفاعل (لابسون - أكلون) لتوكيد الدلالة على الثبات والاستمرار، كما تختلفان في المتعلق بالخبر المتقدم عليه لإفادة القصر والتخصيص (لأوضاعها - لأطرافها) وذلك للدلالة على مدى ما وصل إليه حال قومه من فقر وذل وهوان بإزاء ما وصل إليه حال الوزير وقومه من الثراء والجاه والاستعلاء الذي عبرت عنه الجملتان الواقعتان بإزائهما (وهم يلبسون رفيع الكسا - وهم يذبون بأسواقها)، ثم تأتي الجملة الاسمية المتوازنة مع الجملتين السابقتين تركيبياً وإيقاعياً (ونحن على بابه قاثمون) بيد أنها تبدأ بضمير المتكلم الذي يؤكد ارتباط الشاعر بقومه ومشاركته لهم في همومهم وتطلعاتهم، وهي الجملة التي تبين مدى ما وصل إليه حال قومه من التبعية والتهميش بإزاء ما وصل إليه حال الوزير من السيادة والامساك بأزمة الأمور المبرر عنها بالجملة (فصارت حوائجنا عنده)، ثم تأتي الجملة الأخيرة متوازنة أيضاً مع الجمل السابقة، بادئة بضمير المتكلم أيضاً (فإننا إلى ربنا راجعون)، وتقع

تلك الجمل على نمطين: فعلية وإسمية، فمن الجمل الفعلية قوله (فما تمنعون ولا تنكرون) وقوله (فما تسمعون ولا تبصرون)، وهما جملتان متوازنتان تركيبياً وإيقاعياً، وأفعالهما مضارعة مسندة إلى ضمير المخاطب الجمع العائد على صنهجة، بيد أنها واقعة في سياق النفي للدلالة على السلبية والتخاذل من جانبهم في مواجهة تعديت الوزير وقومه ومساهم بالإسلام وشعائره المعبر عنها بالجملتين الواقعتين بإزائهما وهما قوله (وقد ناهضوكم إلى ربكم - وقد لابسوكم بأسحارهم)، وقد اعتمد الشاعر في الجملتين على التركيب البسيط للجملة الفعلية (الفعل والفاعل والضمير) مما أدى إلى سرعة الإيقاع وتوالى أربعة أفعال في الجملتين، كما أكد أيضاً تكرار حرفي النفي (ما - لا) فيها جميعاً، كما يتضح في الجملتين أيضاً مدى حرص الشاعر على لوتين من بدع النسق وهما المناسبة ومراعاة النظر؛ فأما مراعاة النظر فتمثل في الجمع بين الفعلين (تمنعون - تنكرون) وهما يجيشان بالحركة والإباء، وأما المناسبة فتمثل في وضعهما بإزاء الفعل (ناهضوكم) الذي يجيش بالحركة والفاعلية، ثم يكرر ذلك بالجمع بين الفعلين (تسمعون - تبصرون) ووضعهما بإزاء الفعل (لابسوكم).

ومن الجمل الفعلية أيضاً الجملة المسندة إلى ضمير الغائب (ويأكل غيرهم درهماً فيقضى) بيد أن ضمير الغائب فيها ينصرف إلى المخاطب وهم صنهجة، إذ المقصود فيها (غيرهم منكم) لتوضع هذه الجملة بإزاء الجملة الفعلية (ويدنون إذ يأكلون)، ليبرز من خلال المقابلة بين

والغضب، فيشير الشاعر إلى محاولتهم النيل من الإسلام والمساس بشعائره ومقدساته، وذلك في الجمل الفعلية المؤكدة بـ(قد) (وقد ناهضوكم إلى ربكم)، (وقد لابسوكم بأسحارهم)، وإذا كانت الجملتان السابقتان مسندتين لضمير الجمع الدال على قوم الوزير، فالجملة الأخيرة مسندة لضمير المفرد العائد على الوزير (ويضحك منا ومن ديننا) مشيراً من خلال فعلها المضارع إلى محاولات الوزير المتعددة لمحاكاة القرآن والنسج على منواله استهانة بقديسيته وانتقاصاً من شأن بلاغته وإعجازه.

وإذا كانت هذه الجمل الأربع عشرة السابقة المسندة إلى ضمائر الغائب تمثل الخط الدلالي الأساسي في الأبيات، إذ تشير بكثرتها وتنوعها إلى كثرة جرائم الوزير وقومه في حق الدولة وجنایاتهم على رعاياها، فإن ثمت خطأ دلاليًا آخر يسير في موازاته بنائياً وإيقاعياً ويتقابل معه دلاليًا، ويتمثل نسجته النصي في سبع جمل، بعضها مسند إلى ضمير المخاطب الجمع، وبعضها إلى ضمير المتكلم أو الغائب، بيد أن الضمائر جميعاً تشير إلى قوم الشاعر من صنهجة، ويعمد الشاعر في هذه الجمل إلى تصوير تدهور أحوال قومه بإزاء شأن اليهود، ويصف سلبية قومه إزاء انحرافاتهم جامعاً من تلك السلبية خطيئة منهم وانحرافاً عما كان ينبغي عليهم فعله، وبالتالي يضع الشاعر كل جملة من تلك الجمل السبع بإزاء واحدة من جمل الخط الدلالي السابق ليُحَكِّم من خلال ذلك الموازنة بين حال الطرفين.

وعلى المستوى التركيبى فقد جاءت

المقطع الأول، ثم معابته وتقريعه عليه في المقطع الثاني.

ويتربط على التحول من السرد إلى الخطاب ومن الوصف إلى التحريض كثافة الأساليب الإنشائية وسيطرتها على بنية هذا المقطع، تماماً مثلما غلبت على بنية المقطع الثاني من القصيدة، بيد أنه قد غلب عليها هناك أسلوب الاستفهام الإنكاري مجسداً بنية المساءلة والاحتجاج، في حين يغلب عليها هنا أسلوب الأمر والنهي، إذ هما أقدر الأساليب على تشكيل بنية التحريض.

كما يتناسب أيضاً مع بنية الطلب والتحريض اعتماد الأبيات في معجمها اللغوي على الحقل الدلالي الثاني الذي يمتح من معين العقاب والتكيل الذي يراه الشاعر حقيقاً بالوزير وقومه، وإن كان الشاعر لا يتغلى تماماً عن الحقل الدلالي الأول الدال على الخطيئة، بيد أن ما يرد من ذلك يأتي تابعاً لبنية التحريض، مكماً لدورها، مفعلاً لدلالاتها.

وبالتالي يتشكل النسيج النصي لأبيات هذا المقطع من بنية ثنائية تقوم على التكرار والتوازي إيقاعياً، وعلى الترابط والتكامل دلالياً، وتتمثل تلك البنية الثنائية في خطين دلاليين؛ أولهما وهو الخط الأساسي يتمثل في الجمل الإنشائية الطلبية الرامية إلى التحريض، والثاني مكمل له مفعلاً لدوره، ويتمثل في الخبرية الموازية له المتعلقة به من خلال علاقات متعددة أبرزها الاستدراك والتعليل والتبرير.

فأما الخط الأول فيتكون من سبع جمل إنشائية أساسية، جاءت أربع منها بصيغة الأمر وثلاث بصيغة النهي، وأولها

الوزير وقومه، والمقطع التالي الذي يحاول فيه الشاعر إغراء الأمير باديس بشكل مباشر بقتل الوزير واستصفاء أمواله والتكيل بقومه.

المقطع الرابع:

فَبَادِرْ إِلَى ذَبْحِهِ قُرْبَةً
وَصَحِّحْ بِهِ فُؤُوكَيْشَ سَمِينٍ
وَلَا تَرْفَعْ الضَّغْطَ عَنْ رَهْطِهِ
فَقَدْ كَنَزُوا كُلَّ عِلْقٍ ثَمِينٍ
وَفَرَّقُوا عِدَاهُمْ وَخَذُوا مَالَهُمْ
فَأَنْتَ أَحَقُّ بِمَا يَجْمَعُونَ
وَلَا تَحْسِبَنَّ قَتْلَهُمْ عُذْرَةً
بَلِ الْغَدْرِ فِي تَرْكِهِمْ يَعْثُونَ
وَقَدْ نَكَثُوا عَهْدَنَا عِنْدَهُمْ
وَكَيْفَ تَلَامُ عَلَى النَّاكِثِينَ؟
وَكَيْفَ تَكُونُ لَهُمْ ذِمَّةً وَنَحْنُ
خُمُولٌ وَهُمْ ظَاهِرُونَ؟
وَنَحْنُ الْأَذَلَّةُ مِنْ بَيْنِهِمْ
كَأَنَّا أَسَانَا وَهُمْ مُحْسِنُونَ
فَلَا تَرْضُ فِينَا بِأَفْعَالِهِمْ
فَأَنْتَ زَهِيٌّ بِمَا يَفْعَلُونَ
وَرَأَيْتَ إِيَّاهُ فِي حَزْبِهِ فَحَزَبٌ
إِلَيْهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (١٤)

يعود الشاعر في هذا المقطع إلى النبرة الخطابية الرنانة من خلال الاعتماد على ضمير المخاطب المفرد العائد بالطبع على الأمير باديس، وذلك بغية تحريضه على وزيره تحريضاً مباشراً للإيقاع به والتكيل بقومه بعد أن كشف له تعدياتهم وجرائمهم في حق الدولة ورعاياها في المقطع السابق، وبذلك يكون الشاعر قد أجاد التمهيد لهذا التحريض ليس في المقطع السابق فحسب؛ بل في المقطعين السابقين عليه كذلك، من خلال وصف خطأ الأمير وتداعياته في

بإزاء الجملة الأخيرة المعبرة عن استخفاف الوزير اليهودي بمقدسات الإسلام وبكتابه الكريم (ويضحك منا ومن ديننا) لتؤدي وظيفتين تتمثل أولاهما في الإيحاء بحجم المصيبة وفداحتها، وتتمثل الثانية في تأكيد معاني السلبية والعجز عن جميع ردود الفعل من قومه، وفي ذلك ما فيه من الاستفزاز والإنارة لخلق رد فعل يتناسب مع حجم تلك الكارثة الكبرى.

ومن الملاحظ على أبيات هذا المقطع أنه من أكثر مقاطع القصيدة خضوعاً لهندسة بنائية دقيقة، تلك التي تقوم على التوازي والتقابل بين الخطين الدلاليين السابقين، بحيث لا يشذ عن ذلك من جمل هذا المقطع إلا أربع جمل فقط تأتي تابعة أو مكملة لبعض جمل الخط الدلالي الأول الذي يصور حال الوزير وقومه، أولى هذه الجمل قوله: (فمنهم بكل مكان لعين)، وهي تأتي بوصفها نتيجة ودليلاً على المعنى المعبر عنه بالجملة السابقة (وقد قسموها بأعمالها)، والجملة الثانية هي قوله: (وكيف يكون خؤون أمين؟) وهي الجملة الإنشائية الوحيدة بين جمل هذا المقطع إلا أنها تتصرف إلى الخبر والتقرير من خلال دلالة الاستفهام على النفي والانكار، وأما الجملتان الأخريان فيتضمنهما أسلوب الشرط في البيت الأخير من هذا المقطع:

ولو قلت في ماله إنه

كَمَا لَكَ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٣)
ليمثل ذلك البيت من خلال تأكيد الشاعر على أن مال الوزير إنما هو مال الدولة الذي اختلسه واحتجته دون وجه حق واسطة أو حلقة وصل بين ذلك المقطع الحالي الذي صور فيه الشاعر انحرافات

الأمر (فيأدر إلى ذبحه - وضحَّ به) ليرسم الشاعر من خلالهما طريق العقاب الذي يراه حقيقياً بهذا الوزير الفاسد، وهو ليس مجرد الموت بأية وسيلة، بل الذبح كما تذبج الخراف والأضاحي، ويتعلق بالجملتين المفعول لأجله (قُرْبَةً) والجملة الاسمية (فهو كبش سمين) وذلك من خلال التعليل والتبرير، وإن كان التبرير يقوم على التخييل والإيهام لا المنطق والسببية، ثم تأتي جملة النهي (وَلَا تَرْفَعِ الوَظْفَ عَن رَهْطِهِ) لتنتقل العقاب إلى قوم الوزير الذين شاركوه الفساد والتعدي على الرعية، وهي لا تحدد عقاباً بعينه بل تريد مجمل التنكيل، وبإزاء هذا الطلب الجملة الخبرية التقريرية المؤكدة (فَقَدْ كَفَرُوا كُلَّ عِلْقِ ثَمِينٍ) لتقدم تبريراً منطقياً لهذا الطلب، ومن خلال هذا التبرير يتولد الطلب التالي الذي يحمل تحديد العقاب المطلوب من خلال جمليتي الأمر التاليتين (وَفَرَّقْ عِدَاهُمْ وَخُذْ مَائَهُمْ) ممثلاً في الطرد والتشريد ومصادرة المال، ثم تأتي بإزائهما الجملة الخبرية التي تجمع بين التعليل والإغراء (فَأَنْتَ أَحَقُّ بِمَا يَجْمَعُونَ)، فأموالهم من حق الأمير ورعيته إذ هي أموال الدولة التي أخذوها بغية وعدوانا.

ويخشى الشاعر من تردد الأمير وتهيبه من إيقاع ذلك العقاب ظناً منه أن ذلك يعد غدراً بعهدهم فيعمد الشاعر إلى مجابهة ذلك الظن المفترض وتصحيحه من خلال النهي (وَلَا تَحْسِبَنَّ قَتْلَهُمْ غُدْرَةً)، ثم من خلال الاستدراك بالجملة الخبرية التقريرية المثبتة (بَلِ الْغُدْرُ فِي تَرْكِهِمْ يَبْتُونُ)، ويحتاج ذلك الاستدراك إلى مزيد من التبرير والتفسير الذي

يستطيل حتى يستغرق ثلاثة أبيات كاملة تنكسر على شاطئها موجة الطلب المتدفقة التي استغرقت أربعة الأبيات الأولى في ذلك المقطع، ثم تعود تلك الموجة الطليبية بعد هذه الأبيات الثلاثة إلى التدفق في البيتين الأخيرين حاملة طليبين أو نصيحتين أخيرتين تتمثلان في جملة النهي (فَلَا تَرْضُ فِينَا بِأَفْعَالِهِمْ) وجملة الأمر (وَرَأْبُ إِلْهَكُ فِي حَزْبِهِ) وبإزائهما الجملتان الخبريتان اللتان تقفان بين التعليل من ناحية والتحذير من ناحية أخرى، وهما قوله (فَأَنْتَ رَهِينٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) وقوله (فَحَزْبُ إِلْهِ هُمُ الْغَالِبُونَ)، ويتمثل التحذير فيهما في أن سكوت الأمير عليهم وعدم إيقاعه العقاب بهم يعد انحيازاً إليهم وتخلياً عن الرعية الذين يمثلون الحزب المقابل لهم وهم حزب الله وحزب الحق، والنصر والتمكين لهم في النهاية لا محالة، وبالتالي فهذه الجملة تعد مجاهرة بتحريض الرعية على الوزير وقومه ومن ناصرهم حتى لو كان الأمير نفسه، وهو التحريض الذي أخفاه بإحكام أو أوحى به من خلال الجمل السابقة في تحريض الأمير على وزيره.

وأما الجمل الفعلية التي استغرقت ثلاثة الأبيات السابقة فهي تمثل نسيجاً من الجمل الخبرية التقريرية المثبتة التي تقيد استحقاتهم للعقاب، ويتداخل معها جملتان استفهاميتان هما قوله: (وَكَيْفَ تُلَامُ عَلَى النَّاكثِينَ؟) وقوله (وَكَيْفَ تَكُونُ لَهُمْ ذِمَّةٌ؟) بيد أن دلالة الاستفهام فيهما تنصرف إلى النفي والإنكار والجحود وهو ما يتناسب مع دلالة التقرير والتوكيد الذي تحمله الجمل الخبرية المتداخلة معها.

الخاتمة والنتائج:

ما نستنتجه من خلال هذا البحث يتمثل في الآتي:

أولاً: من الناحية الموضوعية:

١- أن القصيدة التي قالها أبو إسحاق الإليري في تحريض الأمير باديس أمير غرناطة وقومه من الصنهاجين علي الوزير ابن النفريلة وقومه من اليهود تُعبّر عن الثورة والنقد السياسي، تعكس واقع الحياة السياسية المتمثلة في ظلم الطغاة واستبدادهم.

٢- تعكس القصيدة صورة حقيقة مشرقة عن الشعر العربي القديم وتعكس أيضاً الوجه الحقيقي للشاعر العربي وجرأته في مواجهة الواقع بما يكتنفه من سلبيات ومساوئ، وتصحح بعض الدعاوى والآراء التي لم تر في ذلك الشعر العربي القديم إلا تزلماً ورياءً وأبواقاً للحكّام.

ثانياً: من الناحية الفنية:

١- أن القصيدة من بدايتها إلى نهايتها لا تخرج في معجمها الشعري عن إطار ثنائية ضدية هي ثنائية (الخطيئة والجزاء) التي يتداخل طرفاها أحياناً، وينفرد كل منهما ببعض مقاطع القصيدة أحياناً أخرى لكنهما يتلازمان تلازم السبب والنتيجة، ومن خلال هذه الثنائية تتخلق الدلالات السياقية النصية للألفاظ في حركتها الدائبة من دلالاتها المعجمية إلى دلالاتها النصية.

٢- تنوع الأساليب التي تجمع بين الخبر

فإنها تعود في جملتها إلى ثلاثة ضمائر أساسية هي ضمير المتكلم، وضمير الغائب، وتتنوع هذه الضمائر جميعا على طريقتي الثنائية الضدية المحورية في القصيدة.

تلك الخطابية التي تتضح بمائها على الجمل الخبرية هي الأخرى فتتفت فيها جميعا روح الرفض والتحريض والإثارة.

٢- بروز مجموعة الضمائر في القصيدة

والإنشاء، وتكاتف فيها الجمل الإنشائية وتتنوع بين الاستفهام والأمر والنهي، وتعكس تلك الكثافة الإنشائية مدى طغيان النزعة الخطابية المسيطرة على القصيدة.

الهوامش والتعليقات:

- (١) يوسف بن إسماعيل بن النغريلة أو النغرالة من اليهود الذين استوطنوا غرناطة، وكانت سياسة والده إسماعيل ودرايته وعلمه جعلته يتقرب من حاكم غرناطة حتى وصل منصب الوزارة، ثم مكّن لأبيه يوسف هذا حيث بلغ مرتبة الوزارة، ولكنه أساء السيرة، ومكن لليهود، وتناول على الأديان، وبلغ به الغرور إلى التناول على حاكم غرناطة نفسه والتأمر عليه وقتل ابنه بلقين بالسّم، تويّف مقتولاً في ثورة كبيرة من أهالي غرناطة سنة (٤٥٩ هـ)، ينظر ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س. كولان، وليفي بروفسال، دار الثقافة بيروت، ١٩٨٠م. الجزء الثالث ص ٢٦٦. و عبد الله بن بلقين، كتاب التبيان للأمير عبد الله بن بلقين، تحقيق أمين توفيق الطيبي، منشورات دار عكاظ، المغرب بدون تاريخ طبعة، ص ٦٨.
- (٢) ينظر في مؤامره تلك كتاب التبيان ص ٦٨.
- (٣) ينظر ديوان أبي إسحاق الإلبيري، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩١ م ص ١٠٨-١١٢.
- (٤) المصدر السابق ص ١٠٨.
- (٥) ابن بسام الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ١٩٧٨ م، ق ١ / م ٢ ص ٧٦٦.
- (٦) ديوان أبي إسحاق الإلبيري ص ١٠٩، ١١٠.
- (٧) ديوانه ص ١٠٨، ١٠٩.
- (٨) المصدر السابق ص ١٠٩، ١١٠.
- (٩) السابق ص ١١٠.
- (١٠) السابق ص ١١٠.
- (١١) ديوانه ص ١١٠.
- (١٢) ديوانه ص ١١٠، ١١١.
- (١٣) المصدر السابق ص ١١١.
- (١٤) السابق ص ١١٢.
- (١٥) يوسف بن إسماعيل بن النغريلة أو النغرالة من اليهود الذين استوطنوا غرناطة، وكانت سياسة والده إسماعيل ودرايته وعلمه جعلته يتقرب من حاكم غرناطة حتى وصل منصب الوزارة، ثم مكّن لأبيه يوسف هذا حيث بلغ مرتبة الوزارة، ولكنه أساء السيرة، ومكن لليهود، وتناول على الأديان، وبلغ به الغرور إلى التناول على حاكم غرناطة نفسه والتأمر عليه وقتل ابنه بلقين بالسّم، تويّف مقتولاً في ثورة كبيرة من أهالي غرناطة سنة (٤٥٩ هـ)، ينظر ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س. كولان، وليفي بروفسال، دار الثقافة بيروت، ١٩٨٠م. الجزء الثالث ص ٢٦٦. و عبد الله بن بلقين، كتاب التبيان للأمير عبد الله بن بلقين، تحقيق أمين توفيق الطيبي، منشورات دار عكاظ، المغرب بدون تاريخ طبعة، ص ٦٨.
- (١٦) ينظر في مؤامره تلك كتاب التبيان ص ٦٨.
- (١٧) ينظر ديوان أبي إسحاق الإلبيري، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩١ م ص ١٠٨-١١٢.

- (١٨) المصدر السابق ص ١٠٨.
- (١٩) ابن بسام الشتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ١٩٧٨م، ق ١ / م ٢ ص ٧٦٦.
- (٢٠) ديوان أبي إسحاق الإلبيري ص ١٠٩، ١١٠.
- (٢١) ديوانه ص ١٠٨، ١٠٩.
- (٢٢) المصدر السابق ص ١٠٩، ١١٠.
- (٢٣) السابق ص ١١٠.
- (٢٤) السابق ص ١١٠.
- (٢٥) ديوانه ص ١١٠.
- (٢٦) ديوانه ص ١١٠، ١١١.
- (٢٧) المصدر السابق ص ١١١.
- (٢٨) السابق ص ١١٢.